Coptology
Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

الْكَنِيسَةُ

الْجَسَدُ الْوَاحِدُ

الْعَقِيدَةُ، وَالِاخْتِبَارُ اللِّيتُورْجِيّ

دكتور
جورج حبيب بباوي

مارس ٢٠١١

www.coptology.org

الكنيسة، الجسد الواحد
العقيدة، والاختبار الليتورجي[١]

تمهيد:

الكنيسة ليست جماعة، ولا هي مثل الجسد، الكنيسة أرفع من كل هذا؛ لأنها جسد المسيح. والرسول بولس في (١ كورنثوس ١٢: ١٢ – ٢٧) لا يقول إن الكنيسة تشبه جسد المسيح، أو مثل الجسد المؤلَّف من أعضاء، ولكن الرسول كان في غاية الدقة لأنه يؤكِّد: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجَسَدُ الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاؤُهُ أَفْرَادًا" (١ كورنثوس ١٢: ٢٧). ولذلك، الكلام عن الجسد لا يأتي بشكل عام في كتابات القديس بولس، بل بكل دقة يؤكِّد الرسول أن المسيح والكنيسة جسدٌ واحدٌ، وأننا لكي نفهم هذه الحقيقة علينا أن نقارن بين الجسد كما نراه وبين المسيح؛ لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد الواحد – رغم أنها متعددة – هي جسد واحد، كذلك المسيح (١ كورنثوس ١٢: ١٢)، فالمسيح والكنيسة جسدٌ واحدٌ لا يختلف عن الجسد البشري.

نوع الوحدة:

الوحدة التي نتحدث عنها هي وحدة طبيعية، قائمة على حقيقة اتحادنا بالمسيح، فهو قد شاركنا اللحم والدم "فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ

(١) مقالة نُشرت بالكتاب السنوي الثاني بعنوان الحياة الليتورجية – إصدار بيت الشمامسة القبطي بالجيزة، أكتوبر ١٩٧٨ ص ٢٣ إلى ٣٨.

هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ فِيهِمَا" (عبرانيين ٢: ١٤). شركة المسيح في طبيعتنا هي شركة طبيعية؛ لأنه صار واحداً منا، مثلنا في كل شيء "يُشْبِهَ إِخْوَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ" (عبرانيين ٢: ١٧) وأيضاً "لأَنَّ الْمُقَدِّسَ وَالْمُقَدَّسِينَ جَمِيعَهُمْ مِنْ وَاحِدٍ، فَلِهذَا السَّبَبِ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِخْوَةً" (عبرانيين ٢: ١١). هذه الوحدة قائمة على أساس أن الكل واحد في آدم الأول، ومن ثمَّ صارت الوحدة الجديدة على أساس أن الكل واحدٌ في آدم الثاني (رومية ٥: ١٢ – ٢١)، ولذلك، المسيح آدم الثاني، يجمع الكل معاً في واحدٍ، وهو نفسه لا يتغير "لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللهِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ" (يوحنا ١١: ٥٢).

لذلك كما اشتركنا في آدم الأول، نشترك في آدم الثاني، وتصبح وحدتنا في آدم الثاني أقوى بكثير من الوحدة الأولى. هذه الوحدة في آدم الثاني هي الكنيسة، وهي جسد المسيح.

ولكن هذه الوحدة، هي سرية أيضاً؛ لأن الناحية الطبيعية تؤهِّلنا لأن نشترك في المسيح بشكل طبيعي مثل اشتراكنا في طبيعة آدم الأول، ولكننا لا نملك هذه الشركة إلاَّ بالإيمان وبالحياة المسيحية الحقة، إنها قائمة على عمل الروح القدس فينا؛ لأن الروح وحده هو الذي يجعلنا أعضاء في الجسد الذي هو المسيح "بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ" (١ كورنثوس ١٢: ١٣). هذه الوحدة مهيَّأة وجاهزة، ولكنها تحتاج إلى الممارسة، وهذه الممارسة تنبع من الحياة ومن الأسرار. كلما أخذنا من الأسرار، كلما ازدادت الوحدة، وكلما ازدادت الوحدة ازدادت مفاعيل الأسرار فينا. ولذلك عندما نأخذ جسد المسيح الواحد في القداس نقول: "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من أسرارك طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً.." (صلاة بعد حلول الروح القدس). ذلك أن المسيح يجمع الكل معاً لكي تتم المحبة.

خطأٌ رهيبٌ ذلك الذي شاع بيننا وجعلنا نفهم الخطية بمعنى قانوني، أي باعتبارها تعدٍّ فقط، دون أن ندرك أن الخطية تُفَرِّق الجماعة وتزرع الانقسام وهذا هو غاية ومعنى كلمة "جسداني" (١ كورنثوس ٣: ٣). ولذلك، فالخلاص هو خلاص الجماعة، هو الممارسة الواحدة التي تجعل كل المؤمنين حقاً في وحدة، وإن كنا لا نفكر

اليوم بكل أسف في معنى السلوك الكنسي السليم، أي السلوك في سبيل الوحدة، ولذلك نجد أن كل ما نتحدث عنه كفضائل وكخطايا يحتاج إلى مراجعة؛ لأن الإنسان لا يتطهر بشكل كامل إن عاش في عزلة، وإنما يتطهر تماماً إن عاش عضواً في جسد المسيح.

في الكتاب المشهور – راعي هرماس – وهو مِنْ مؤلفات القرن الثاني، رأى هرماس الكنيسة مثل برج مبني من حجارة حية، وفي أثناء البناء يرفع كل حجرٍ الحجر الذي يعلوه لكي يرتفع البناء ويكمُل. ويُلاحِظ هرماس أن كل حجر يترلق بسهولة فوق الحجر الذي تحته لأن كلاهما قد قُطِعَ ونُحت وليس فيه نتوءات حتى أن البرج عندما بُني لم يعد أحد يلاحظ أن البرج مبنيٌ من عدة أحجار، بل من حجر واحد (الرؤيا الثالثة: ٢ و ٦ – ٨). الحجارة الحية تعبير مأخوذ من (١ بطرس ٢: ٥) لأن الكنيسة هي بناءٌ حي، ولذلك نرى في بقية الرؤيا حجارةً لامعةً جيدةً مستديرةً رفضها البنَّاء؛ لأن استدارتها معناه العزلة، والعزلة هي إحدى جوانب الخطية التي لا نتحدث عنها. عزلةُ الاكتفاء بالذات، وعزلة الخوف من الموت؛ لأن الخوف من الموت هو مصدر الأنانية عندما يظن الإنسان أن الاحتياط والعزلة يدفع عنه خطر الموت.

الكنيسة كمثال للثالوث على الأرض، ولكنها – كمثال – تأخذ وحدتها من الثالوث:

يُعد الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا من النصوص الهامة عن علاقة الكنيسة بالثالوث، حيث يؤكد ربنا أن الكنيسة سوف تصبح واحداً عندما قال: "أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ" (يوحنا ١٧: ١١) ومن المؤكد أن وحدة الثالوث الكاملة والتامة بين الآب والابن والروح القدس هي المثال الذي يتطلع إليه المؤمنون بالمسيح للوصول إلى أعمق درجات الوحدة وكمالها.

يعلِّق القديس كيرلس السكندري على هذا النص بقوله:

"إنه يريد أن يحفظ تلاميذه في اتحاد العقل والهدف كما لو كانوا قد جُمِعوا معاً وصار لهم نفسٌ واحدة وروحٌ واحدة هو روح المحبة الأخوية، وأن تربطهم معاً رابطة المحبة القوية التي لا تنكسر؛ لكي يكمِّل اتحادهم وتصبح رغباتهم موحَّدة مشابهة للوحدة الطبيعية بين الآب والابن، وتبقى غير منقسمة ولا منفصلة ولا يقوى عليها شيءٌ من قوات هذا العالم، ولا رغبات الجسد وشهواته التي تقود إلى الاختلافات وتعدد الأهداف، بل يبقى اتحادهم في التقوى والقداسة وبقوة المحبة الكائنة فيهم. وقد قرأنا عن هذا في سفر الأعمال: "وكان لجميع الذين آمنوا قلباً واحداً ونفساً واحدة" (أع ٤: ٣٢). وهذا الاتحاد من الروح القدس، وهو ما يعبِّر عنه الرسول بولس بوضوح عندما قال: "جسدٌ واحدٌ، وروحٌ واحدٌ؛ لأننا نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح لأننا جميعاً نتناول من الخبز الواحد" (١ كورنثوس ١٠: ١٧)، ونحن الذين أخذنا المسحة من الروح الواحد، أي روح المسيح نصبح واحداً مثلهم (الرسل) جسد واحد؛ لأننا نشترك في نفس الروح. وهكذا أراد المسيح أن يحفظ الآب تلاميذه في وحدة الروح حتى لا يقدر أحد أن يفرِّقَهم، وفي العقل الواحد غير المنقسم ***unbroken singleness of mind*** ومن يقول إن التلاميذ اتحدوا وصاروا واحداً مثل الآب والابن في الجوهر، في الإرادة؛ لان طبيعة الله القدوس لها إرادة واحدة، فهو ليس بعيداً عن الحق؛ لأننا نرى ذات الهدف الواحد عند المسيحيين الحقيقيين، إلاَّ أننا لسنا مولودين من ذات الجوهر مثل ولادة الابن من الآب الذي هو منه وفيه".

(تفسير يوحنا ١٧: ١١ الكتاب ١١: فصل ٩).

وكأن القديس كيرلس السكندري فيما هو يؤكِّد وحدة جميع المؤمنين، يُذَكِّرنا بأن قوة هذه الوحدة لا تجعلنا سوى مثالاً، والمثال دائماً لا ينطبق على الحقيقة

التي يمثِّلها تماماً؛ لأن الابن مولودٌ من ذات جوهر الآب منذ الأزل، أو قبل كل الدهور، وهذا هو ما يجعلهما واحداً، أمَّا نحن، فإن وحدتنا تتم في الزمان وتأخذ قوتها من عمل الروح القدس، ومن وحدة الحياة المسيحية، وتماثُل الهدف عند المسيحيين الحقيقيين، كما أنه لا يوجد بيننا مَن هو مولودٌ من ذات جوهر الآخر.

على أية حال، لقد عالج القديس كيرلس السكندري هذه النقطة بوضوح عندما فسَّر يوحنا ١٧: ٢٠ – ٢٢ "وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ (الرسل)، لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِدًا فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ". يقول القديس كيرلس السكندري:

> "المسيح هو باكورة ثمار الذين دُعُوا لكي يُبنَوا معاً للحياة الجديدة، وهو الإنسان السمائي الأول؛ لأن بولس يقول عنه: "آدم الثاني الرب من السماء" (١ كورنثوس ١٥: ٤٧). وكما كتب يوحنا: "وليس أحد صعد إلى السماء إلا ابن الإنسان" (يوحنا ٣: ١٣). وكل الذين على صلة به، لاسيما الذين اختارهم ليكونوا رسلاً وتابعين له، الذين جمعوا له ثمار نعمته، وهم قد شاهدوا مجده وخدموه، وصاروا بالنسبة له ثمار الحياة الجديدة التي جاءت بعده؛ لأنه هو رأس الجسد أي الكنيسة (كولوسي ١: ١٨). ولقد طلب لهم بركة وتقديس الروح الذي سيأتي من عند الآب، ولكن بواسطته (المسيح)... ولكن لا أحد من الذين يفحصون الكتب الموحى بها يتخيل أنه طلب أن يحل الروح على الرسل فقط، بل أنه طلب لأجلنا نحن أيضاً الذين نتبعهم ونعيش في بداية عصر المسيحية، لذلك أضاف – الوسيط بين الله والبشر ورئيس كهنة نفوسنا – هذا النص لكي يكبح الخيالات الغبية: "ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم"؛ لأنه

يبدو غير معقول أن يقع كل البشر تحت عقاب الدينونة بسبب إنسانٍ واحدٍ، أعني آدم الأول، حتى الذين لم يخطئوا في ذلك الزمان عندما تعدَّى مؤسِّس جنسنا، الوصية التي أُعطيت له، هؤلاء لبسوا صورة الترابي غير الممجدة، وعندما جاء المسيح في وسطنا، أي الإنسان من السماء، فهؤلاء الذين دُعُوا من خلاله للبر، أي البر الذي بالإيمان، يجب أن لا يحول بينهم وبين إعادة تشكيلهم حسب صورته (المسيح). وكما أننا نقول إن صورة الترابي غير المحبوبة، نراها في أمثلة عدة وفي أشكال مختلفة من البشر الذين يحملون دنس الخطية وضعف الموت والفساد وعدم طهارة الشهوات الجسدية والأفكار العالمية، إلاَّ أنه على النقيض من هذا، نتأمل صورة السمائي أي المسيح التي تشرق بالنقاء والإخلاص وبكمال عدم الفساد وبالحياة وبالقداسة، ولذلك كان من المستحيل علينا نحن الذين سقطنا من خلال العصيان الأول أن نعود إلى مجدنا القديم، إلاَّ إذا حصُلنا على اشتراكنا ووحدتنا في الله؛ لان طبيعة البشر قد أُخضِعَت من البدء للموت، وبذلك لم يعُد ممكناً لأي إنسان أن يصل إلى الاتحاد بالله إلاَّ بالروح القدس الذي يزرع فينا التقديس الخاص بأقنومه، ومن جديد يُعيد تشكيل الطبيعة التي أُخضِعَت للفساد، يُعيدها إلى حياته؛ فيعود الإنسان إلى الله وإلى شبهه وإلى المجد الذي فقده. والابن هو المثال الذي يعبِّر ويعلن عن الآب، وروحه هو المماثلة الطبيعية للابن، لهذا السبب فهو من جديد يخلق نفوس البشر ويختم هذه النفوس بصورة الله ومثال العلي.

لذلك يصلِّي ربنا يسوع المسيح ليس من أجل الإثنى عشر فقط، بل من أجل كل المختارين في كل عصر، الذين يتمسكون ويطيعون كلمات تعليم الرسل، ويأخذون التقديس بالإيمان والتطهير الذي يتم فيهم من خلال الاشتراك في الروح،

وهو لم ير أنه من المناسب أن يتركنا في شكٍّ بخصوص صلاته ومعناها، لأنها تُعَلِّم أي سلوكٍ يجب أن يكون سلوكنا نحن البشر، وأي طريق للبر يجب أن نسير فيه لكي نصل إلى ما يسُرَّهُ. فما هو هدف صلاته: "ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكون الكل واحداً فينا"؟ فهو يطلب رابطة المحبة والاتفاق والسلام لكي يصل إلى الاتحاد الروحي، كل الذين يؤمنون؛ لكي تشبه وحدتهم التي تتم من خلال المحبة الكاملة والاتفاق غير المفترق للنفوس، ملامح وحدة الجوهر التي للآب والابن. لكن رابطة المحبة التي تربطنا كلاً بالآخر، وقوة الاتفاق لا تقوم ولا تدوم من ذاتها، وهي لذلك ليست مثل وحدة الآب والابن غير المتغيِّرة التي هي قائمة بذاتها لأنهما يحفظان وحدتهما بسبب وحدة الجوهر، وهذه الوحدة طبيعية وحقيقية لأنها قائمة على كل ما في طبيعة الله من صفات. أمَّا وحدتنا نحن البشر، فهي مظهر للوحدة الإلهية، مظهر للحقيقة. وكيف يمكن للشبيه *Imitation* أن يصبح مثل الحقيقة الواقعية لأن مثال الحق لا يمكن أن يكون في محتواه مثل الحق نفسه، بل هو مجرد شكل، ويظل كذلك شكلاً للحقيقة، ما لم يدخل عليه عنصر غريب يشوِّهه. وإذا ظن هرطوقي أو تخيَّل أنه قادر على أن يقلب تعاليم وحدة أقانيم الثالوث وبالذات الآب والابن، وحاول أن يبرهن على نظريته الجنونية وقدَّمها لنا على هذا النحو: (نحن لسنا واحداً لأن شكل جسد كل واحد منا مختلف عن الآخر كما أن أرواحنا لم تنصهر كلٌ في الأخرى، ولكن وحدتنا هي في الطبع وفي محبتنا لله وفي الاتفاق ووحدة الهدف ورغبتنا في إتمام إرادة الله، هكذا الابن وعلى نفس هذا الشرح هو واحد مع الآب أي واحد معه في الإرادة والاتفاق وليس في الجوهر)، فإننا نرفض مثل هذه

النظرية كلها ونعتبر قائلها مذنب بالجهل وعدم الفهم، لماذا؟ لأن الأمور التي هي أعلى وأسمى من الطبيعة الإنسانية، لا يمكن مقارنتها بما للإنسانية، ولا يمكن أن نُخضِع مَن ليس له جسد للقوانين التي خضع لها الذين لهم أجساد. لا تُشابه الأشياءُ الإلهيةُ، الأشياءَ الإنسانيةَ. ولو انعدمت الفوارق التي بيننا وبين الله، لأمكن لنا أن نُقارن بين ما يخص الله وبين ما يخصنا، ولكن إذا كانت هناك اختلافات بين طبيعة الله والبشر، وهي اختلافاتٌ تفوق التصور، فلماذا يحاولون أن يفهموا الطبيعة الإلهية التي لا ترتبط بأي ناموس يخص البشر الضعفاء، ويخطئون بارتكاب ما هو غير معقول؟ وإذا فعلوا ذلك، فهم يبنون الحق من الظلال، أو يؤلفون الحق من صورته التي تشبهه فقط، وبذلك يعطون الكرامة للمخلوق، ويجعلون ما هو ثانٍ مكان الأول، ويَصِلون إلى فهم سبب كل الأشياء من الأشياء نفسها. ولكن حتى لا نبقى طويلاً في مناقشة هذا الموضوع ونتوه عن معاني النص الإنجيلي نقول إنه عندما يقدِّم المسيح وحدته مع الآب ووحدة الآب معه كمثال وصورة للشركة غير المفترقة، والاتفاق والوحدة التي يمنحها هو للنفوس الملتهبة بمحبته، فهو يرغب أن نتآلف معاً بقوة الثالوث الواحد في الجوهر ونصبح واحداً، وتصبح الكنيسة بأسرها جسداً واحداً صاعدةً بالمسيح إلى تلك الوحدة التي تجعل الشعبين شعباً واحداً[1] لأن بولس يقول: "هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً وهدم حائط السياج المتوسط ونقض العداوة بجسده وحتى الناموس والفرائض أزالهم لكي يخلق الاثنين في ذاته إنساناً جديداً واحداً صانعاً سلاماً ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به"

---

(١) اليهود والأمم كما هو واضح من النص.

(أفسس ٢: ١٤ – ١٦). ولقد تم هذا في الذين آمنوا بالمسيح وصاروا نفساً واحدة وأخذوا قلباً واحداً في تماثلهم الكامل في حياة التقوى ومحبة الله وفي طاعة إيمانهم واشتياقهم للفضائل. وما قلته ليس بعيداً عن الحق، بل هو مناسب وضروري، وإذا كان معنى النص يلزمنا بأن نغوص وراء ما هو أعمق – خصوصاً – وأن كلمات المخلص تدعونا إلى ذلك: "كما انك أيها الآب فيَّ وأنا فيك هكذا ليكون الكل واحداً فينا"، فلذلك يجب أن ننتبه إلى معنى هذه الكلمات. لأننا فيما سبق، قد أكَّدنا – وبكل صواب – أن وحدة المؤمنين وإتقان قلوبهم ونفوسهم، تُشبِه وحدة الثالوث وتماثل الأقانيم. ولكننا في هذا المجال يجب أن نشير إلى الوحدة الطبيعية التي تشملنا جميعاً وكلنا معاً بالله دون أن نفقد الوحدة المادية ***Physical*** القائمة بيننا رغم أن لكل منَّا جسده الخاص به الذي يملكه والذي يحفظ له فرادته ***Individuality*** لأن بطرس لا يمكن أن يُصبح بولس، ولا يمكن أن نتكلم عن بطرس ونحن نقصد بولس، رغم أن كلاهما واحد بسبب وحدتيهما في المسيح، فإذا سلَّمنا بالوحدة الجوهرية التي للآب والابن والروح القدس؛ لأننا نؤمن ونمجِّد الله الواحد في الثالوث القدوس، لنبحث كيف صرنا واحداً كلٌ مع الآخر ومع الله بالمعنى الحسي والروحي لكلمة وحدة: الابن الوحيد المولود من ذات جوهر الله الآب، والذي فيه كل طبيعة الآب الذي ولده، هذا صار جسداً حسب الكتب واتحد بطبيعتنا في اتحاد لا يُعَبَّرُ عنه، وصار واحداً من اثنين: أي جسده الأرضي ولاهوته، وهو الذي بطبيعته الله، هو الإنسان من السماء، وظل دائماً الله والإنسان بعكس ما يقوله الذين لا يفهمون هذا السر، ولّما اتحد فيه العنصران اللذان لا يمكن أن يتحدا، أصبح الإنسان قادراً على أن يشارك ويأخذ من الطبيعة

الإلهية، ولهذا حصلنا فيه نحن على شركة وحضور الروح القدس الذي بدأ في المسيح ومن المسيح أولاً عندما صار إنساناً مثلنا ولأجلنا، وأخذ المسحة والتقديس رغم أنه بالطبيعة الله؛ لأنه مولودٌ من الآب نفسه، ولكنه قَدَّس بروحه هيكل جسده، بل كل الخليقة التي تدين له بالوجود والتي يمكن أن يشملها التقديس. هذا السر بدأ أولاً في المسيح وصار طريقاً يؤهِّلنا لنوال الروح القدس والاتحاد بالله لأننا فيه تقدَّسنا كلنا حسبما ذكرت لتوي.

ولكي نتحد كلٌ مع الآخر وبالله، رغم وجود فروق بين كل شخص وآخر؛ لأن لكل منا فرادته وروحه وجسده الخاص به، إلاَّ أن الابن الوحيد جَهَّز الوسيلة حسب حكمته وحسب مشورة الآب. لأنه بجسدٍ واحدٍ، أي جسده، بارك بالوحدة كل الذين يؤمنون به ويأخذونه في سر الإفخارستيا الذي فيه أيضاً (الإفخارستيا) نصبح كلنا جسداً واحداً معه، ومَنْ يمكنه أن يُفرِّق ويُقسِّم الذين اتحدوا بوحدة طبيعية وعُقِدوا ***Knit*** معاً في جسده المقدس الذي هو واحد مع المسيح؟ لأننا إذا اشتركنا في الخبز الواحد، نصبح جسداً واحداً؛ لأن المسيح واحدٌ لا يقبل التقسيم. لذلك، الكنيسة هي جسد المسيح، وكلنا — كأفراد- أعضائه حسبما قال الحكيم بولس. لأننا كلنا اتحدنا بالمسيح بجسده المقدس حيث أننا أخذناه في أجسادنا، أي الواحد غير المنقسم، تصبح خدمة أعضائنا مملوكة له وليس لأنفسنا. وهنا يصبح المسيح الرأس، ولكن الكنيسة تصبح جسده المكوَّن من المسيحيين، وبولس يبرهن لنا هذا بهذه الكلمات: "لكي لا نكون فيما بعد أطفالاً مضطربين ومحمولين بكل ريح تعليم، بحيلة الناس، بمكر إلى مكيدة الضلال. بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس: المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً، ومقترناً بمؤازرة كل

مفصل، حسب عملٍ على قياس كل جزء، يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة" (أفسس ٤: ١٤ – ١٦). وأن كل الذين يأخذون جسده المقدس يحصلون على هذه الوحدة الحقيقية الحسية في المسيح. يقول بولس مرة أخرى ويشهد مشيراً إلى سر التقوى "الذي في أجيال أُخر لم يُعَرَّف به بنو البشر كما قد أُعلِن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال الموعد في المسيح" (أفسس ٣: ٥ – ٦)؛ فإذا كنا كلنا من ذات الجسد واحداً في المسيح، من خلال جسده، ألا يعني هذا أن كل واحد منا هو واحد مع الآخر وفي المسيح؟ وبالإشارة إلى الوحدة في الروح، حيث أننا نسير من ذات الطريق، نقول إننا نأخذ الروح الواحد، وهذا يوحِّدنا كلٌ بالآخر وبالله، ولكن الذي يسكن في كل فرد منَّا هو الروح الواحد غير المنقسم الذي يحفظنا، ولكنه يجعلنا واحداً، وكما أن قوة جسده المقدس يجعل الذين يأخذون هذا الجسد من ذات الجسد الواحد وواحداً معه وفيه، هكذا الروح غير المنقسم يسكن في الكل، ولكنه يظل الواحد الذي يجمع الكل في وحدة روحية؛ لذلك يخاطبنا بولس المُلهَم: "محتملين بعضكم بعض في المحبة. مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام. جسد واحد وروح واحد كما دعيتم إلى الرجاء الواحد لدعوتكم. رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة. إله وآب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي الكل" (أفسس ٤: ٢ – ٦)... وإذا تركنا حياتنا الطبيعية وأسلمنا ذواتنا إلى ناموس الروح القدس، فإنه لا يبقى مجالاً للشك في أننا إذا كنَّا بإنكارنا لأنفسنا وبحصولنا على الحياة العليا التي تشبه حياة الروح القدس، الذي يحل فينا، فإننا نتحول إلى طبيعة أخرى، ونصبح لسنا بَعدُ بشراً، بل أبناء الله وبشرٌ سمائيون، وبذلك نبرهن على أننا شركاء الطبيعة الإلهية.

لذلك نحن كلنا واحد في الآب والابن والروح القدس.
وواحدٌ، وأنا أعني في الهوية *Identity* أو الفكر وكذلك في الحياة حسب البر وفي شركة جسد المسيح المقدس وشركة الروح القدس الواحد".

(المرجع السابق: الكتاب ١١ فصل ١١ تفسير يوحنا (١٧: ٢٠ - ٢١).

والنص لا يحتاج إلى تعليق، لكن على القارئ أن يلاحظ جيداً:

١– إن وحدة الكنيسة مستمدة من الثالوث.

٢– إنها على مثال الثالوث، مع الفوارق التي ذكرها القديس كيرلس.

٣– إنها تتم في شركة جسد المسيح في الإفخارستيا، الذي يجعل المؤمنين واحداً ويجعل كل فرد عضواً في جسد المسيح.

٤– إن الوحدة تحتاج إلى إنكار النفس، والتشبُّه باتضاع وعمل المسيح والروح القدس، لأن هذا هو الذي يرفعنا إلى الحياة العليا وكل هذا من الله.

٥– إن وحدة الكنسية توهَب مثل كل العطايا الإلهية، ولا تورَّث، وتحتاج دائماً إلى اليقظة الروحية والنمو.

الاختبار الليتورجي لوحدة الكنيسة:

عندما نقرأ الإصحاح الثالث من (أفسس ١– ١٠)، ثم الرابع (١ – ٦)، نكتشف أن الرسول بولس يضع أمامنا حقيقة هامة، وهي (الجسد الواحد) الذي صرنا نحن الأمم (شركاء) فيه. وتعبير (الجسد الواحد) في غاية الأهمية؛ لأنه عندما يستخدمه الرسول بولس، فإنه – بكل تأكيد – يعني المسيح والكنيسة. هذه المسألة الدقيقة في غاية الأهمية؛ لأننا نظن أحياناً أنه توجد ثلاثة أجساد، وهي بالتحديد:

- جسد المسيح عن يمين الآب.
- جسد المسيح في الإفخارستيا.
- ثم جسد المسيح أي الكنيسة.

هذا التقسيم لا نراه مطلقاً في العهد الجديد، بل نرى العكس، نرى أن المسيح الواحد يعطي هذه الوحدة على ثلاثة مستويات:

- وحدةٌ مع الآب عندما جلس عن يمين الآب.
- وحدةٌ معه هو شخصياً، وهي في الواقع قلب الوحدة في الإفخارستيا.
- وحدةٌ مع المؤمنين، وهي وحدة الجسد الواحد.

وطبعاً هذه مظاهر ثلاثة للوحدة، وليست ثلاثة أنواع مختلفة من الوجود. ولأن هذه النقطة هامة جداً، علينا أن ندرس النصوص الخاصة بالجسد في العهد الجديد لسبب واحد، وهو أن الاختبار الليتورجي يضعنا في قلب هذه الوحدة بمظاهرها الثلاثة.

أولاً: الرسالة الأولى إلى كورنثوس:

عندما ندرس النصوص ابتداءً من الإصحاح العاشر – لاسيما – الإفخارستيا نجد أننا أمام تعبير الجسد الواحد "الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ، أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟ فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ" (١ كورنثوس ١٠: ١٧). ولذلك الوحدة هنا في جانبها الفعال والواضح هي وحدة تُمارَس وتُختَبر في الاتحاد بالمسيح الذي يجعل الكل معاً جسداً واحداً، هو المسيح والكنيسة، وهو الجسد الواحد الذي تزرعنا المعمودية فيه كأعضاء "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ" (١ كورنثوس ١٢: ١٣) ثم نرى أن الجسد الذي يستخدمه الرسول كمثال للحديث عن الجسد الواحد، يوصف أيضاً بأنه واحد، ولذلك المثال نفسه يؤكد وحدة الجسد (١٢: ٢٠).

ثانياً: الرسالة إلى أهل أفسس:

حيث يظهر بكل وضوح أن المسيح هو رأس الجسد، وأن هذا الجسد هو الكنيسة (أفسس ١: ٢٢ – ٢٣). ثم يعود الرسول لكي يؤكد أن الخليقة الجديدة التي لا وجود فيها لجنس يسمى اليهود، ولجنس آخر يسمى الأمم، هذه الخليقة مصدرها "الإنسان الواحد الجديد أي آدم الثاني الذي صالح كل الأجناس والشعوب في جسد واحد مع الله بالصليب" (راجع أف ٢: ١٦). وهنا الجسد الواحد، هو ذات الجسد

الذي صُلب، هو جسد يسوع، وبالتالي لا مجال بالمرة للحديث هنا عن أجساد ثلاثة، بل هو ذات الجسد الواحد الذي نشترك فيه، وهو ذات الجسد الواحد الذي صُـــلب؛ لأن الإنسانية كما قلنا تنحدر من آدم الجديد الواحد، وهو ما يتحدث عنه الرســـول بعد ذلك ويصفه بـــ "سر المسيح". هذا السر هو بكل يقين اجتماع اليهود والأمم في مصالحة، وهذا الاجتماع جعل الرسول يقول عن الأمم: "شركاء في الميراث والجسد" (أف ٣: ٦). هذه الشركة في الجسد الواحد، هي الكنيسة، وهي التي يصفها الرسول بعد ذلك بـــ "وَحْدَانِيَّةَ الرُّوحِ ... جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِـــدٌ" (أف ٤: ٣ – ٤)، ولذلك، وبعد أن يؤكد الرسول هذه الوحدة يُقدِّم على الفور هذه الوحدة بين المسيح والكنيسة كمثال للزواج: "وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَداً وَاحِداً. هذَا السِّرُّ عَظِيمٌ، وَلكِنِّنِي أَنَا أَقُولُ مِنْ نَحْوِ الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ" (أف ٥: ٣١ – ٣٢).

ثالثاً: الرسالة إلى أهل كولوسي:

منذ بداية الرسالة يقدِّم الرسول ذات المعنى، ويؤكد هنا بعبارات أقـــوى: إن الجسد الذي تصالح فيه الكل هو "جِسْمِ بَشَرِيَّتِهِ" (كو ١: ٢٢)، ولكن جسم بشريته هذا، ليس فكرةً أو مضموناً، إنه هو جسد المسيح، وهو "جسده الذي هو الكنيســـة" (كو ١: ٢٤)، ولأن المسيح هو رأس الجسد، يقول الرسول بكل وضوح: " الـــرَّأْسِ الَّذِي مِنْهُ كُلُّ الْجَسَدِ بِمَفَاصِلَ وَرُبُطٍ، مُتَوَازِراً وَمُقْتَرِنًا يَنْمُو نُمُوًّا مِنَ اللهِ" (كـــو ٢: ١٩) وبالتالي علينا أن نفهم بكل دقة أن وحدة الجسد هي التي جعلت الرسول يقول هذه الكلمات: "لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ" (أفسس ٥: ٣٠) وهـــي صدى لكلمات آدم الأول عندما وصف حواء التي منه أخذت "هذه لحم من لحمـــي وعظم من عظامي" (تكوين ٢: ٢٣) وهي طريقة التعبير العبرانية الشائعة والواضـــحة جداً والتي تعني بكل دقة هذه مني أي من كياني، ولذلك وحده، يمكننـــا أن نقـــول: الكنيسة جسد المسيح لأنها منه، من كيانه من حياته ومن لحمه وعظامه، هذا هو ســـر الاتحاد به الذي لا مثيل له سوى سر الزيجة، الذي من المفروض أن يرفعنا إلى فوق إلى معاينة المسيح والكنيسة.

الممارسة والمعيشة:

في الأسرار نرى بكل وضوح أنه لا يوجد سرٌّ واحد يمارسه الفرد كفرد، بل السر تمارسه الجماعة. ولذلك، حتى المعمودية، وحَسَب كُتب الكنيسة الطقسية، الشعب يكون حاضراً، ولا يمكن أن تتم المعمودية بدون حضور الشعب؛ لأن الشعب يرى (الغرس الجديد)، والشعب هو الذي يسلِّمه قانون الإيمان عن طريق الإشبين (العراب) وهذه الحقيقة الفائقة تجعلنا نرى أنه حتى في معمودية البالغين، يجب أن يُلَقِّن الإشبين أو الشماس قانون الإيمان لمن يعتمد، لأن التلقين هنا هو تسليم الإيمان من الجماعة إلى الفرد. وجحد الشيطان يتم أمام الجماعة أيضاً، وكذلك الدهن بالميرون يتم أيضاً أمام الجماعة ليس كشهود فقط، بل لأنهم يشاركون مسئولية حياة ونمو العضو الجديد. وبعد ذلك التناول حيث يتم اتحاده بالكل، أي جماعة المؤمنين. في المعمودية الاتحاد شخصي؛ لأن الفرد يعتمد وحده. في الإفخارستيا الاتحاد بالجماعة. في المعمودية الاتحاد الشخصي بالمسيح، وهو نفسه، أي المسيح يقود إلى الاتحاد بالجماعة. في الزيجة التي لا تتم إلاَّ يوم الأحد حيث يجتمع المؤمنون، ولا تتم إلاَّ في القداس حسب قانون وطقس الكنيسة القبطية، من الواضح أن اتحاد الرجل بالمرأة يتم على أساس اتحاد الكنيسة بالمسيح، ولذلك يقف العريس على باب الكنيسة حسب الشهادات القديمة، يقدِّم للعروس صليباً على باب الكنيسة، وتقول الكتب الطقسية تعليلاً لذلك: لأن المسيح اتحد بالكنيسة بسر الصليب، وتتم صلوات الكليل بعد رفع بخور باكر، ثم يتم تناول العروسين قبل الشعب كله، وبعد خدام المذبح مباشرة، ولا زالت بقايا التناول نراها في فتح ستر الهيكل أثناء قراءة الوصية وتغطية اليدين بلفافة، وهي أصلاً لفافة التناول.

هذه الوحدة الروحية من الكنيسة هي سبب اختيار الشعب لراعيه من الدياكون حتى البابا البطريرك، وهذه ليست ديمقراطية وحرية، أبداً.. فهذه كلمات بشرية لا تكفي للتعبير عن سر المسيح والكنيسة. هنا الكنيسة ترى في أحد أعضائها مَن يصلح لأن يكون أباً وراعياً. هنا الجسد يميِّز عضواً فيه، فإذا كان الجسد لا يميِّز

هذا العضو، ولا يراه كعضوٍ فيه، فكيف يمكن أن تتم رسامة بالإكراه؟!! وكيف يمكن أن نفرض راعياً على إيبارشية؟!! ... كل هذه الممارسات الخاطئة التي يجب أن تكون في طريقها إلى الزوال هي في الواقع إنكار كامل لمعنى الكنيسة.

الممارسة لا تأتي إلاَّ من الحياة السليمة، ولذلك، عندما يهبط مستوى الحياة يهبط مستوى الممارسة. إن العالم القبطي زكريا ابن سباع في القرن الثالث عشر يقول: "الإفخارستيا وحدها هي التي تجعل الرجل والمرأة في الزيجة جسداً واحداً". وكم مَنْ ارتفع إلى مستوى هذه الممارسة؟ وكم مَنْ يعرف أن كل مرة يتناول فيها إنما لتجديد كل ما أخذ وما سيأخذ من عطايا إلهية في الزيجة أو البتولية.

الأسرار تمارسها الجماعة من أجل حياة الجماعة، والليتورجية هي معايشة وممارسة لسر الوحدة بين المسيح والكنيسة.